ماذا تعنى الفلسفة ؟ *

كانت الفلسفة بوجه عام علمَ الشمول الذى لا يُحَدَّد ، علمَ كل شىء ، وبمعنًى أدق علم القوانين العامة التى تُسَيِّر الأشياء جميعًا ، حتى ضَيَّقَ التجريبيون ميدانهَا وجعلوها كعلم من العلوم الخاصة ، وحددوا لها موضوعها فى الأفكار أو الحياة النفسية للفرد ، فلما جاء كانط بُذلت مجهودات قوية للتوفيق بين فكرتى الشمول والتخصص .

وقد وقف كانط من مذهبى التجربة والعقل موقف الحذِر ولم يُسَلِّم لواحدٍ منهما بدعاويه العريضة ؛ لم يُسَلِّم للمذهب التجريبى بأنه وُفِّقَ إلى تحديد ميدان المعرفة الإنسانية . حقٌّ أن معرفتنا تبدأ بالتجربة ، ولكن ليس معنى ذلك أنها تُشتق كلها من التجربة ، فقد تكون المعرفة التجريبية نفسها ليست من خالص التجربة ، ولكن مما يضيفه العقل إلى آثار الحواس ومنعكساتها . . أى قد تكون نتاج عمل العقل وتأليفه بين الصور الحسية المنقولة إلينا .

ويمكن الاعتراض على ادعاء المذهب التجريبى بمسألتين : أولاً ، وجود قضايا عامة بالعقل لا تمت إلى التجربة بصلةٍ مّا ، ولا يمكن

* المجلة الجديدة ، فبراير ١٩٣٥م .

تفسيرها عن سبيل التجربة ، مثال الأفكار الرياضية البديهية ؛ ثانيًا ، أن لهذه الأفكار العامة قوةَ وجوبٍ ضروريةً تجعلها مستحيلة التصور على غير ما هى عليه . والتجربة لا تبرر هذا الوجوب الضرورى ، بل إن المعرفة التجريبية نفسها لا تبلغ درجة اليقين من غير معونة هذه القضايا الضرورية ، أو من غير العقل الذى يبدع لها صفة الضرورة ، ومثال ذلك : خذ أىَّ قانون مأخوذ من التجربة ، وليكن قانون سقوط الأجسام . . فإن قولنا كل الأجسام تسقط نحو الأرض لا تبرره التجربة ، لأنها مهما امتدت وتعددت فلن تشمل كل الأجسام . وقصارى الجهد أن يجربها الفرد على عشرات أو مئات الأجسام ، فإذا أعطيناها هذا الشمول وأكسبناها صفة الوجوب والضرورة فإنما نعطيها ذلك ، ونُكسبها هذا بقوة أخرى غير التجربة ، وعلى ذلك فمعرفتنا تحوى من الأصول ما لا يمت بصلة إلى التجربة .

كذلك لم يُسَلِّم للمذهب العقلى بادعائه حصر المعرفة فى العقل ، وبأن المبادئ العقلية هى أصل كل معرفة إنسانية صحيحة ؛ وقد بشر ديكارت بذلك ونبذ كل معرفة لا ترجع فى نهايتها إلى الأفكار البسيطة البديهية ، وجعل مهمة الفلسفة الأولى اكتشاف هذه الأفكار ، ثم استنتاج العلم الإنسانى كلِّه منها على الطريقة الرياضية .

وقد اعترض كانط على هذا الأسلوب من التفكير ، وفَرَّقَ بين الرياضة والفلسفة تمهيدًا إلى تقرير هذه النتيجة ، وهى أن المعرفة الإنسانية

لا تنحصر فى مبادئ العقل ، وأنها تكسب الكثير من التجربة ؛ فالرياضة فى مجموعها ترجع إلى مبادئ عقلية بسيطة يركب منها العقل ما يشاء ، وهى صحيحة ما دامت تنظر إليها بعين العقل .

وهذا لا يمنع موافقتها للتجربة ، لأننا لا نقول إن العقل يخالف الواقع . أما الفلسفة فمبادئها أفكارٌ كالعلة والمعلول والجوهر . وهذه تحتاج فى تصوّرها إلى المشاهدة والواقع ؛ وعلى ذلك فالمعرفة ليست مِلْكًا للتجربة ، ولا مِلْكًا للعقل ، وإنما هى بَيْنَ بَيْن ؛ وموضوع الفلسفة عند كانط هو تحديد الأفكار العقلية a priori التى تسيطر على المعرفة والعمل ، وبيان تسلسلها وخلق نظام تام منها .

والفلسفة نظرية وعملية . النظرية تحدد موضوعًا ، أى تبين طبيعته وقوانينه ؛ والعملية تحققه ؛ وهى عمومًا ـ نظرية وعملية ـ مجردة وتجريبية ؛ مجردة من حيث إنها تقوم على مبادئ فوق التجربة ، وتجريبية من حيث إنها تجرد مبادئها من التجربة .

أما الفلسفة النظرية المجردة فهى الفلسفة بمعنى الكلمة ، وهى تنقسم إلى قسمين من حيث إنها تدرس قوانين الفكر العامة ـ وهى ما يعرف بالمنطق ـ ومن حيث إنها تدرس علاقة الفكرة بالأشياء (وهذه هى الميتافيزيقا). هى علم القوانين الفكرية العامة المطلقة من حيث علاقتها بالأشياء ؛ وكانت عند كانط تؤدى وظيفتين ، واحدة تمهيدية

وهى النقد (أهم ما يغلب على فلسفته) ، والأخرى هى تسلسل القوانين العامة بما يمهد إلى إبداع النظام الفلسفى .

وأما الفلسفة العملية أو الأخلاقية فهى مجردة وتجريبية ، مجردة غايتها معرفة قوانين العقل للحرية (أى قانون الواجب)، وتجريبية تبحث فى قوانين الحكمة والحقوق .

ولكن أهم وظيفة للفلسفة هى النقد ؛ فبالنقد استطاع أن يمحّص المذاهب الفلسفية السابقة ، ويقصى عنها المبالغات والادّعاءات المتطرفة لينتهى بإنشاء فلسفة قوية تُعَدُّ من أمتن المفاصل فى هيكل الفلسفة العام .

***

وبعد كانط نزع الفلاسفة نزوعًا من شأنه أن يعيد للفلسفة شمولها شيئًا فشيئًا ، ولو أنهم احتفظوا لها بشخصيتها كعلم متميز .

وكان فخت أول مَن فكر فى إيجاد علم للعلوم ؛ كان يفهم معنى العلم فهمًا جيدًا ، وكان يرى أن لكل علم مادةً وصورة . والمادة هى موضوع العلم ، والصورة هى منهجه المنطقى ، كالقياس فى العلوم الرياضية والاستقراء فى العلوم الطبيعية . والعلم يستقرئ الوقائع ويستنتج القوانين ويبدع النظريات ، ولكنه لا يحفل بتحديد موضوعه ولا منهجه ، فلا يسأل مثلاً لماذا كان موضوعه ما هو كائن ، ولا ما هى

الصلات التى تربط هذا الموضوع بغيره من موضوعات العلوم الأخرى ، ولا لماذا يناسبه نوع من التفكير دون سواه ، فالعلم الذى يبحث مواضيع العلوم ومناهجها هو الفلسفة ، وبذلك يشمل كل العلوم ويتخصص فى بحث موضوع خاص به .

ولكن إذا كان له موضوعه ومنهجه فهو يحتاج بدوره لعلمٍ يدرسها كما يدرس هو مواضيع ومناهج بقية العلوم ؛ ولكن منعًا للتسلسل إلى غير نهاية ، رأى فخت أن يعهد بدراسة موضوع الفلسفة ومنهجها إلى الفلسفة نفسها ، فتكون بذلك هى العلم الأول أو علم المبادئ ، وذلك يُرجعها إلى تعريف أرسطوطاليس .

***

احتفظ شلنج وهيجل للفلسفة بما ميزها به كانط وفخت من أنها علم القوانين العقلية المطلقة أو علم العلوم ، ولكنهما زادا إلى شمولها هذا شمولاً جديدًا فى الموضوع ، ويفسر ذلك ويستتبعه رأيهما عن وحدة الوجود ، فهما يريان أن الذات والموضوع والواقع والمثال والطبيعة والنفس تتحد ذواتها فى المطلق أو الفكر . وليس هنا موضع شرح المغلق من هذه الفلسفة ، فَلْنكتفِ بالقول بأن ذلك معناه أن الوجود المتباين متحد الذات فى الفكر ، وأمامنا سبيلان لإثبات هذه الذاتية الواحدة ، فإما أن نبدأ بالموضوع والواقع والطبيعة لنثبت أنها وما يقابلها من الذات والمثال

والنفس شيء متحد فى الفكر ، أو العكس . والفلسفة تعنى بهذين السبيلين لمعرفة وحدة الوجود ، فيتحتم أن يشمل موضوعها كلَّ الوجود ، وبذلك يتم إرجاعها إلى سابق حالها على أيام أرسطو . على أن ذلك لم يمنع وجود بعض آراء معاصرة رجعت فى تصور الفلسفة إلى ما كان يتصورها به لوك من أنها علم النفس ، كرأى ريد ودوجالد ستيوارت .

***

رأىُ كوزان عن الفلسفة لا يتعدى رأى فخت أو هيجل ، وتم له رأيه على درجتين ، فقال فى سنة ١٨١٨ إن كل حقيقة تحوى ما يرفعها إلى مرتبة الحقائق ، وكل علم فيه من الخواص الفردية ما يميزه عن بقية العلوم ، ومن الصفات العالية ما يكسبه مميزات العلم ، فما الحقيقة ؟ وما العلم ؟ هذا هو موضوع علم العلوم أو الفلسفة .

وفى سنة ١٨٢٨ رأى أن الفلسفة أشمل من ذلك وأوسع ، فقال إنها علم الفكر ، أو هى الفكر يفكر فى نفسه وما يحويه من عناصر الحقيقة ، فتنصب بذلك على المنطق والأفكار النافعة والعادلة الجميلة لأنها جميعًا ترجع إلى الفكر .

أما جوفروى فكان يرى أن الفلسفة تنحصر مسائلها فى أسئلة يُوَجَّه بعضها إلى الأشياء ويُوَجَّه البعض الآخر إلى القوانين العامة ، ولكنه لم يكن يعتبر هذه القوانين إلا من حيث علائقها بالأشياء من حيث إنها

تهيئ لها الحلول ، فكل مسألة فلسفية تجد حلها فى قانون عقلى أو نفسى فمرجعها فى النهاية علم النفس .

***

أما الوضعيون فيرون أن زمن الفلسفة قد مضى ، كأنها ليست أسلوبًا جوهريًّا فى تفكير الإنسان وإنما حالة طارئة تلابس الفكر فى طور من أطواره ثم تَضْحَىٰ من التقاليد الزائدة بعد مضىّ ذلك الطور ، يقولون إن الفلسفة بمعناها الحقيقى لا وجود لها فى ميدان المعرفة الإنسانية الآن ، وُجِدَتْ وكان وجودها ضرورةً أيام كانت عناصر التجربة الإنسانية العملية محدودة فى متناول الباحثين المتفرغين ؛ أما اليوم فقد انقسم العلم إلى علوم ، وتفرع كل علم إلى فروع ، وقام كل واحد من هذه الفروع على أساس إقصاء الأسئلة الميتافيزيقية عن ميدانه .

أضف إلى ذلك أن الميتافيزيقا فى أوْج مجدها لم تصل أبدًا إلى حقائق مؤكدة لا يأتيها الشك من مَنْفَذ . وهى ما تزال كل يوم آخذةً فى تقريرٍ من مناهجها من غير أن تنتهى إلى حل . وفى مقابل ذلك نجد فرعًا من فروع المعرفة ـ وهو العلم الوضعى ـ يصل إلى حقائق يقينية يبنيها على تجارب حقيقة بالثقة والإقناع ، مما يبرر الرأى القائل بأن العقل البشرى لم يوجد لحل المسائل الميتافيزيقية التى تستعصى عليه ، وإنْ كان فى مقدوره أن يبحث المسائل العملية ويبلغ من بحثه أوثق النتائج .

وإذن فالعلم لا يبحث عن المطلق ، فهو نسبى . ولكنهم لم يقرروا نسبيةَ العلم بالنقد العقلى ، وإنما استنتاجًا من تاريخ العلم الإنسانى .

قالوا إن العقل البشرى قبل أن ينتهى إلى الحالة الوضعية مرّ بحالتين : لاهوتية ، وميتافيزيقية ؛ ففى الحالة اللاهوتية ينزع العقل إلى الكشف عن ماهية الأشياء والعلل الأولى ، ويفسر الظاهرات بقوة فوق الطبيعة ؛ وفى الحالة الميتافيزيقية نجد تغيرًا ظاهرًا فى تصوره ، فالقوة الشخصية المميزة يستبدل بها قوى مجردة توجد فى مختلف الظاهرات وتحدثها ، أما فى الحالة الوضعية فَهَمُّهُ الأول أن يدرس الظاهرات وتسلسلها ويستكشف قوانينها .

***

من خلاصة الآراء فى الفلسفة نفهم أن معناها تردد بين أن تكون علم العلوم ، أو علم القوانين العقلية المطلقة للفكر والوجود ، أو علم النفس الإنسانية فتتميز عن العلم إذن بدراستها النفسية ؛ ومن هنا كان علم النفس ، وبفكرة الشمول والتوحيد بين الأشياء . . ومن هنا نشأت الميتافيزيقا ؛ وقد ترجمت الفلسفة بين هاتين الفكرتين فى جميع العصور حتى حاول كانط أن يوفق بينهما ، فوجد ـ أثناء تقيده للنفس ـ القوانين العقلية المطلقة ، أما من حيث الرد على المذهب الموضوعى فحسبنا أن نقول إن موضوع الفلسفة غير موضوع العلم ، وهذا يبرر دواعى وجودها

ولا يجعل من نجاح العلم فى مناهجه دليلاً على بطلان موضوعها أو فساد أساليبها ؛ ونجاح العلم وبلوغه أكمل النتائج لا يشفى غليل النفس الإنسانية المتعطشة إلى العرفان . حقًّا أن فى العلم نورًا ومنافع للعلم ؛ ولكن كل هذا لا يقنع العقل ، بل يبقى متطلعًا صوبَ أسئلة أخرى تحيره وتغريه بالبحث ، وهذه الأسئلة التى تنبع من صميم النفس هى التى تكفل ـ وسوف تكفل ـ بقاء الميتافيزيقا .

بل إن العلم نفسه ظاهرة حقيقة بالبحث والتأمل : كيف ينشأ العلم؟ وما هى دواعيه وأغراضه ؟ وكيف تقرر له المناهج المختلفة ؟ . . كل ذلك يتطلب علمًا يبحث العلم من نواحيه المختلفة ، ثم إنه لا يكفى أن نعرف الظاهرات ونربطها بمختلف القوانين ، فهنالك مسألة لا تقل عن ذلك فى أهميتها وأحقيتها بالمعرفة ، وهى : ما قيمة هذه المعرفة ؟ إننا لا نعرف شيئًا ولا نستنتج أمرًا إلا عن طريق الفكر ، فهل تكون معرفتنا مطابقةً الواقع والحق ، أم أنها أوهام من صنع فكرنا ونحته ؟ بل أين الدليل على أنه يوجد حقٌّ واقع وتصورٌ ذاتى لا يتجاوز أمره الفكر ؟ كل ذلك يحتاج إلى علم يبحثه ويقرر الحق فيه .

الفلسفة رهن بهذه الأسئلة ، وهى لذلك باقية ما بقيت هذه الأسئلة ، وما بقيت النفس التى توقظها .